كانت سورية مدرسة اوربا

يعلم القراء الادباء ان غارة الاسكندر المكدوني على سورية ورسوخ قدم خلفائه السلوقيين فيها صبغ البلاد بالصبغة اليونانية بحيث اصبح الكثيرون من سكانها يتكلمون لغة السائدين فيها ويتخلقون بمناحيهم ونسي كبراؤهم وادباؤهم يقرأون كتب اليونانية وآدابها ويتعلمون ما دبرهم العلوم والفنون المتصلة اليهم من حكماء اليونان. ولم يقتصر هذا في القطر السوري بل تعداه الى ما بين النهرين وغيره من الاقطار الاسيوية التي ساد فيها العنصر اليوناني غير ان القول بتأدب المتمدين باليونانية لا يفيد ان سكان تلك الاقطار بجملتهم نبذوا لغاتهم ظهريًا والا لما قام في اذسا وهي الرها الحالية مدرسة تعلم العلوم واللغتين اليونانية والسريانية تعليمًا حسنًا اذاع صيت المدرسة حتى تقاطر اليها طلاب العلم

وكانت اذسا يومئذ محط رحال علماء السريان وفيها المكاتب الحافلة بكتب لغتهم اليونانية. على ان الكتب اليونانية كانت واعية فلسفة اليونان وآدابهم فانبرى بعض جهابذة السريان لنقل تلك العلوم الى لغاتهم لفائدة السواد الاعظم من ابناء جنسهم

وظلت هذه المدرسة عاملة على نشر العلوم من القرن الخامس للمسيح الى ان جلس على اريكة الدولة الشرقية الامبراطور زينون فاضطهد النساطرة لانهم على غير مذهبه اضطهادًا شديدًا حمل علماء اذسا على مبارحتها والتجاء بانفسهم من قلقهم الى نصيبين فخربت مدرسة اذسا لكن نشأ عوضها مدرسة نصيبين وشاع ذكرها

اما اليعاقبة فكان من امرهم انهم طلبوا العلم والفلسفة وبرعوا في تحصيلهما ونشرهما وانشأوا لذلك مدرستين احداهما في رسايين اسسها سركيس مطران تلك المدينة والاخرى في قنسرين

والعلوم التي كانت تدرس في تلك المدارس هي الفلسفة والطب والعيدلة والحيوان والنبات والجغرافيا وعلم الفلك وغير ذلك مما كان لليونان فيه باع طويل

اما الطب فكان اشتغال النساطرة به قديمًا ومشهورًا بين اهل الشرق يرجع فيه الى آراء مشاهيرهم الآخذين هذا العلم عن اليونان

وشهرتهم فيه حملت لبعض من نزح من علماء اذسا الى خوزستان ان ينشئ هنالك مدرسة للتعليم فما عتمت ان اشتهرت هذه المدرسة بنجاحها الباهر وخرج منها كثيرون من العلماء ونطس الاطباء الذين علت مكانتهم بما نالوا من الحظوة في البلاط الكسروي ولدى امراء العرب في الحيرة وغسان

ولما فتح العرب سورية وبين النهرين ورسخت قدمهم فيهما نشأت مدرستان عظيمتان احداها في انطاكية والاخرى في حران لتعليم الطب واللغات العربية والسريانية واليونانية وآدابها

اما في بلاد فارس فان العلم تقوضت اركانهُ بعد الفتح وكاد ينطمس عن آثاره لولا نهوض العباسيين لنصرة العلوم والفنون . فان اولئك الخلفاء اولعوا بالحكمة والطب فاحيوا موات العلم في طلبهما واستقدموا لشرحها تلامذة المدارس النسطورية من السريان واليعاقبة الذين مرت بهم زعازع الحروب فلم يراعوا بل حفظوا خزائن كتبهم سليمةً لتكون مشكاة هدًى للعالمين

اعتبر ذلك بما عُرف عن الخليفة المأمون كيف بعث يطلب الكتب اليونانية في الحكمة والطب من القسطنطينية عاصمة الروم فلما اتاهُ شرع يهتم بتعريبها وعهد الى حنين بن اسحق احد نطس الاطباء من نساطرة الحيرة بنقل كتب الطب ففعل وكان الرجل ضليعاً بمعرفة اللغات العربية والسريانية فاحكم النقل وانشأ الطب العربي جارياً فيهِ على النهج اليوناني

والنهج اليوناني في الطب ظلَّ عماد الطب العربي الا ان نوابغ الاطباء من العرب لم يكتفوا بما اتصل اليهم منقولاً عن اليونان بل اخذوا شيئاً من مناهج الهند وغيرهم من المشارقة وزادوا فيهِ اشياء من مبتكراتهم

واشتهر من العلماء في الطب كثيرون من النساطرة وهذه كتب التاريخ تروي اسماء بشيءٍ من نوابغهم وفيهم جماعة من رؤساء الدين وخدمتهِ حتى ذاع فضلهم ولم يأتِ القرن الحادي عشر للمسيح الأَّ ومدارس الطب في الكوفة والبصرة ودمشق والقاهرة وانطاكية واورشليم وطرابلس الشام قد عبق أريج شهرتها وتقاطر اليها الطلاب من اقصى الممالك الاسلاميَّة

واما في سورية خصوصاً فان مدرسة الطب الكبرى كان يديرها خدمة الدين من السريان والنساطرة واليعاقبة حتى انهُ يروى ان المطران ميخائيل رئيس اساقفة اليعاقبة في حلب استعفى من مقامهِ الاسقفي واتى طرابلس واقام فيها يعلم الطب بمدرستها الى آخر ايامهِ .

وممن اشتهر في تلك الاونة من علماء الطب تيودور الانطاكي الذي صار طبيباً للامبراطور فردريك الثاني والطبيبان باسيل الحنفي ويعقوب النسطوري الطرابلسي والطبيب ابو منصور الاورشليمي وتلميذهُ يعقوب بن صقلان طبيب السلطان صلاح الدين الايوبي

وقد اتصل بنا ان في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان الاطباء في سوريا اذا عالجوا انساناً يكونون ضامنين لسلامتهِ وشفائهِ من دائهِ وتأثير العلاج فيهِ ولكن اذا مات

عليهم فكان لهم ان يوهنوا انهُ لم يتّبع نصائحهُ وارشاداتهِ ولم يستعمل علاجهم فكان هو الجاني على نفسهِ . وكان الطبيب كلما عاد مريضاً واعطاهُ وصفة علاج تحفظ تلك الوصفة حتى اذا مست الحاجة تؤخذ الى رئيس الاطباء فيرى هل احسن الطبيب فيها او اساء

واذا اخطأ الطبيب خطأ اودى بحياة العليل يؤخذ الطبيب به فيشنق ان كان الميت حرًّا ويحجز املاكهُ وان كان رقيقاً غرم بثمنهِ

وهذا النظام الصارم كان من اوضاع الصليبيين في سوريا . ومن الغريب ان يشددوا على الاطباء الوطنيين مع انهم كانوا في اشد الحاجة اليهم كما سترى ومع انهم لم يكونوا يسمحون لطبيب بالمعالجة الاَّ اذا اجتاز امتحاناً دقيقاً لدى لجنة من الاطباء يرأسها المطران

واما الصيدلة فان القوم كانوا يعتبرونها جزءًا من الطب ولذلك كان الاطباء يهيئون العلاج بايديهم . على ان علم الصيدلة نال من العناية حظاً حتى كتب اطباء المسلمين والنصارى فيهِ كتباً جمة منها كتاب الفهُ علي الطرابلسي سنة ١٢١٩ م واتصل باوربا واسمهُ باللاتينية Ornamentum Medici, Tractatus Chymico-Medicus.

وكان في جملة الدروس الطبية امراض العيون والجراحة والبيطرة وقد اهتم الاطباء بالبيطرة كثيرًا وكتبوا فيها واصفين ثلثة وعشرين مرضاً يصيب الحيوان

واما الفلسفة فقد كانت عند القوم يومئذٍ ركناً من اركان العلم الطبي لاسيما وان علمي الحيوان والنبات كانا يحسبان من اجزاء الفلسفة ولما ولع القوم بقراءة مؤلفات ارسطو مالت افكارهم الى التبحر في العلوم

وتوسع علماء تلك الايام في التاريخ الطبيعي توسعاً حسناً بالنسبة الى حالهم ويُنسب الفضل في اجتهادهم فيهِ الى ما توفقوا اليهِ من جوب الاقطار ومعرفة حيوانها ونباتها

ففي القرن الثامن نبغ الجاحظ بن المأمون لجمع مجموعةً حسنة من الحيوان وكثيرون من الطلاب اشتغلوا بدراسة هذا العلم ولولا كراهة التشريح وقلة التمحيص لاجادوا في معرفة خصائص الحيوان

واما النبات فقد نبغ في سوريا بل يصح ان يُقال ان العلم بهِ نشأ فيها في القرن الثالث عشر لان ابن البيطار الاندلسي جاء سنة ١٢١٧ م فطاف في مصر وفي انطاكية ونزل دمشق وجال في لبنان يجمع نباتاته ويرتبها وصحب في طوافهِ مصورًا ماهرًا يرسم لهُ ما يعجز عن حملهِ وكان قد سبقهُ الى التبحر في هذا العالم رشيد الدين الصوري الذي وُلد في صور سنة ١١٧٧ وقرأ العلم في دمشق وعكف على جمع نبات جنوبي سوريا وضواحي بيروت

وطرابلس وانطاكية ولبنان · واما القزويني فقد نال قصب السبق بما خلف من المؤلفات الباحثة في التاريخ الطبيعي فجعل القسم الاول من كتابهِ عن المعادن واكثر فيهِ من الاستشهاد بما كتب ارسطو ويبحث في القسم الثاني في النبات وفي القسم الثالث في علم الحيوان من الانسان وذوات الثدي والطيور والحشرات · ومما يؤخذ على هذا المؤلف الذي جمع فارعى ان كلامهُ عن الحيوان لم يكن سديداً في مواضع جمة لانهُ لم يرَ معظم الانواع التي وصفها فجاء كلامهُ عنها ضعيفاً ركيكاً

اما علم الهيئة فان العرب اخذوهُ عن اليونان والهنود واكثر ما اعتمدوهُ آراء مدرسة الاسكندرية ولكنهم لم يقفوا عند حد ما اخذوا بل توسعوا فيهِ جداً نظرياً وعملياً فانشأوا كثيراً من المراصد واهتموا باتقان آلاتها فادركوا درجة حسنوا بها ما اتصل اليهم ونحن نعرف عن اليونان انهم اقدر من احكام النظريات منهم على العمليات لقصورهم في الرصد ومعداتهِ فما لم يحسنوهُ في زمانهم اتقنهُ العرب بضبط ارصادهم ودقة حسابهم

ومما نقل ان المأمون اقام مرصدين احدهما في بغداد والآخر في دمشق ثم بعث اربعاً من علماء الهيئة وهم سناد بن علي وخالد بن عبد الملك وعلي بن عيسى وعلي بن البحتري الى السهل الواقع بين تدمر والرقة ليحققوا مقياس الدرجات

وتبحُّر العرب في علوم الهيئة اضطرهم الى اتقان العلوم الرياضية فبرعوا فيها حتى انهُ نبغ منهم في القرن التاسع بضعة من كبار المهندسين ومن ثم اخذوا الجبر عن الهنود واقدم من امتاز بعلم الجبر محمد بن قرة وثابت بن قرة وصلاح الدين الغزي واعظم ما انصرفت اليهِ همهم ايضاً حساب المثلثات ليقدروا على الانتفاع بهِ في ارصادهم وكان من اول النابغين الامير محمد بن جابر البتاني الذي توفي في القرن العاشر

ولم يقتصر علماء العرب على حفظ علوم الاقدمين بل فاقوا في الرياضيات معلميهم من علماء مدرسة الاسكندرية ونبغ منهم في ذلك العصر كثيرون منهم الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه

واما الجغرافيا فقد اتسعت عندهم بنسبة رحلاتهم لانهم طافوا سواحل الهند وسيلان والهند الصينية وجاوي وسومطرة وبورنيو منذ القرن الحادي عشر وكان قد سبق بعض كتابهم وكتبوا في القرن العاشر وصفاً لاقطار اسيا الواقعة بين المتوسط وشبه جزيرة ملقا واجادوا في وصفها بما دلَّ على معرفة احوال البلاد ثم قام المسعودي وهو اعلم اهل عصره وكان قد زار الهند واقام في كامباي ثم في مدغسكر حيناً من الدهر واقى بعدها سورية وسكن طبرية

وانطاكية وقد اجاد في ما كتب عن الاقطار التي عرفها

وانشأ الادريسي مدرسة في صقلية (سيسيليا) اشتهرت بتعليمها فن الجغرافيا تعليماً حسناً

وهكذا كانت سورية في تلك العصور ملأى بالعلماء العارفين الجغرافيا ولربما كان منهم كتبة اودعوا علمهم بطون الاوراق فضاع بضياعها

والخرائط القديمة المحفوظة في متاحف اوربا وهي من صنع القرن الرابع عشر كلها مبنية على معارف الجغرافية المستمدة من تلك الايام اعتبر ذلك بالخريطة المكتوبة باللاتينية الموجودة في المكتبة الوطنية في باريز عدد ٤٩٣٩ فانها رسمت سنة ١٣١٠ للارض المقدسة وتجد فيها المواقع مضبوطة كل الضبط ومجموع خرائط بياتروفسكونتي المرسومة سنة ١٣١٨ وبغيرها من الخرائط الاخرى

واما الفلسفة فان كتب اليونان فيها عُرّبت باهتمام الخلفاء ونقلها العلماء من النساطرة واليعاقبة الى اللغة العربية كما هو مستفيض بين قراء التاريخ

واشتغال العرب بالفلسفة لم يحفظها فقط من الضياع بل اكسبها تفنن بعض الحكماء في البحث وتعليق الحواشي عليها حتى صارت موضوعاً يتهافت عليه الطلبة

فاتضح لنا من البحث الاجمالي الذي ذكرنا ان سكان سورية في القرن الحادي عشر للبلاد كانوا راقين في معارفهم وعلومهم رقياً يُعد يومئذٍ من الطراز الاول الاّ ان الفرق بين رقي تلك العصور ورقي اوربا واميركا لهذا العهد عظيم وذلك لان التعليم اليوم عم سواد الامم الراقية بخلاف الحال يومئذٍ فان المتعلمين كانوا نخبة الطالبين فضلاً عن ان العلوم التي كانوا يحسبونها يومئذٍ منتهى الحكمة والمعرفة انما هي اليوم مستفيضة بين الناس الاّ الفلسفة والطب فانهما برحا من دروس الخاصة على انهما ارتقيا بذاتهما كثيراً

اما الاوربيون الذين اغاروا في اواخر القرن الحادي عشر على سورية واحتلوا بعض انحائها وعرفوا في التاريخ باسم الصليبيين فانهم كانوا في جهل مطبق. وفضلاً عما كانوا يعانون في بلادهم من سلطة الاكليروس والاعيان كانت خلائقهم واخلاقهم وآدابهم الاجتماعية والسياسية ومعارفهم مما يكاد لا يجد لهذا العهد مثيلاً الاّ بين الامم البعيدة عن العمران. فلما رسخت اقدامهم في البلاد رأى اعيانهم ان القوم المغلوبين ارقى منهم في المعرفة فاندفع ابناؤهم يطلبون العلم في المدارس التي وجدوها. واهم ما اتجهت اليه خواطرهم علم الحقوق فبرع فيه كثيرون منهم

ومما يحكى عن احد عظمائهم المسمى ريمون صاحب انه برع في العلوم والآداب الشرقية براعة عقدت عليه الخناصر وانه كان مولعاً بدرسها حتى انه استخدم واحداً من الوطنيين يقرأ له كتب العلم ويفسرها حتى تضلع منها واصبح في مقام يعجب منه علماء الشرق انفسهم وقد اجتمع به بعضهم سنة ١١٨٨ في حضرة السلطان صلاح الدين الايوبي فادهشتهم غزارة مادته وسعة علمه . وكان له ابن اسمه بايان قيل عنه انه فاق اباه

ومال غير من ذكرنا لقراءة علوم اليونان وآداب لغتهم فبرعوا فيها اخصهم جفروي الكاهن فقد ذكر عنه احد المؤرخين انه كان اعلم اهل زمانه باليونانية وادابها

ومعظم الامراء والاعيان ولعوا بتعلم اللغة العربية فبرع منهم كثيرون اخصهم البرنس همفروي ده تورون الذي كان يترجم بين الملك ريشار قلب الاسد والملك العادل اخي السلطان صلاح الدين ومثله بودوين دابلين الذي كان ترجمان الملك لويس القديس اثناء اسره في مصر

واما الجغرافيا فان الصليبيين مالوا لدراستها بكليتهم منذ وطئت اقدامهم ارض سوريا لما قدروا من انها تجر لهم نفعاً وشغفوا بعلم الهيئة

واما علم الطب فالمستفاد من تواريخ الشرق والغرب ان الصليبيين كانوا يعتمدون فيه على علماء البلاد اكثر من اعتمادهم على علمائهم واخص من نال ثقتهم رجال الدين من السريان اليعاقبة لان الاطباء الافرنج الذين جاؤوا من اوربا لم يكونوا يضارعون الوطنيين في معارفهم الطبية واقتدارهم ولذلك لبثوا احط منهم شأناً لا سيما وان معارف اولئك كانت قاصرة على تجاربهم من غير علم صحيح بالامراض وخصائص الادوية ولهذا مال الصليبيون منذ حلوا سوريا الى الانتفاع بمعارف الاطباء الوطنيين من سريان ونساطرة ويعاقبة واسرائيليين وسلمين فاصبح الاطباء في مقام عالٍ في المجتمع الافرنجي . ولا تخلو تواريخ الصليبيين من الامتعاض من حالة اطبائهم وقصور معارفهم ولعل ذلك كان سبباً في تشديد الوطأة على من يسيء المعالجة منهم . ومعظم مؤرخي تلك الاونة متى كتبوا عن الطب والاطباء يحصرون كلامهم في العواصم الاسلامية كدمشق وبغداد والقاهرة وما فيهن من المدارس الا ان في تضاعيف اخبارهم ذكراً لاسماء بعض نوابغ المدارس الاخرى في سوريا لا سيما المدرسة الكبرى المسيحية التي يستفاد من رواية كاترمر quatremere وراي E. Ray انها كانت في طرابلس الشام تعلم الفلسفة والطب وقد نبغ منها كثيرون من المشاهير ومثلها مدرسة انطاكية

واما في التاريخ الطبيعي فمدرسة طرابلس القدح المعلّى لانها فضلاً عن المؤلفات القديمة التي كان طلابها يقرؤونها كانت تأخذ كثيراً عن السياح والمسافرين

ويستفاد من رواية المؤرخ جاك ده فتري ان بعض الصليبيين وهو في جملتهم طلبوا هذا العلم ايضاً ولكن ما ذكرهُ تفقاً من الموضوع يدل على ان هذا العلم لم يكن خالياً من الترهات والركاكة على ان بعض نقدة عصرنا يرى ان المؤرخ المأثور عنهُ تحرّي البحث والتدقيق في كل موضوع وقعت عينهُ عليهِ فجاء كلامهُ صحيحاً بخلاف ما ذكرهُ عما لم يرهُ بل نقل حديثهُ نقلاً فان هذا الضرب مملوء بالوهم والخطاء

اما الفلسفة فان مدارس سورية شرحت تعليما على ما اتصل بها عن اليونان والسريان والعرب وكان يغلب عليها صبغة مذهب أرسطو بدليل ان بعض نقدة العصر يرون في مذهب ابن الصيري الفلسفي شيئاً من مظاهر هذه الصبغة . وابن الصيري كما روى السمعاني من تلامذة مدرسة طرابلس

ونصارى القول ان السوريين من النساطرة واليعاقبة وغيرهم حفظوا العلوم القديمة من الضياع والسعوا في فهمها ونشرها وعلّموها للصليبيين النازلين بين ظهرانيهم فكانت شعلة نور اتصلت بواسطتهم باوربا وبمدارسها القديمة حتى قال جوردان Jourdain ان مدارس باريز ابتدأت تعلم فلسفة المشائين سنة ١٢٢٠ وسنة ١٢٢٥ وهذه الفلسفة على ما ذهب اليهِ العلاّمة رينان هي التي كان يعتمدها السوريون

فان صحّ ذلك فلسوريا الفضل الاعظم في تعليم اوربا . الاّ انّا ندوّن ذلك من قبيل البحث التاريخي البحت لا نقصد بهِ التفاخر لانهُ لا يفتخر بالرمم الاّ ساقطو الهمم

ومما يجب ان يذكر ان اطلاقنا اسم العرب على المشتغلين بالعلم لا يختص بابناء الامة العربية بل يشمل كل الذين كانوا قد خضعوا لحكم العرب من الفرس والسريان والروم وغيرهم

فعسى ان تتقد فينا الحميّة لاسترجاع عز الشرق العلمي ومكانتهِ السامية في الرقيّ بما نأخذ عن القوم السابقين من دراسة مناهج رقيهم لئلاّ نظنّ في تأخرنا وتراهم في اوج حضارتهم فنقول حسبنا انهم يتمتعون بما اخذوهُ عنا

ر . ن